سليمان البستاني

الرجل — رجل السياسة — رجل العلم والادب

بقلم فؤاد افرام البستاني

توطئة

﴿العائلة﴾ في جبّة بشراي من لبنان الشمالي قريةٌ صغيرة تُدعى بقَرْقاشا . وفي هذه القرية صخرة كبيرة تُعرف حتى الآن بصخرة البستاني او بصخرة ابي محفوظ البستاني . ذاك اسمٌ لم تقوَ السنون على نزعه . وانَّ من الاسماء المأثورة التقليدية ما يثبت ثبات الصخور

أيام كان خير عمل الانسان الحراثة والاشتغال بزراعة الارض ، أيام كانت التجارة مزدوجة في عُرفهم بالمكر والخداع ، أيام كان اسم اميركا لا يُفيق في مخيّلة الجبليين تلك الاكداس الذهبية ، أيام كان اعظم سفرة يحلم بها اللبناني هي ان يرحل الى طرابلس او الى بيروت او الى الشام فيرجع محدّثاً اهلهُ بالعجائب والغرائب فيتناقلونها ويعظّمون الحظّ الذي اتاح لهُ تلك الاسفار البعيدة فيغبطه اهل الضيعة ويغبطون امرأته واولاده وتتغنّى نساؤهم :

زوجك يا مليحه راح عالشام وحده

في تلك الايام كان ابو محفوظ يحرث بستاناً عامراً وسط بقرقاشا . كان يتعب ويكدّ فلا يترك شجرة غريبة او زهرة عجيبة او نبتة صالحة الّا أودعها ذاك البستان الخصيب واجتهد في انمائها . . . حتى فاقت مزروعاته وفاكهته منظراً وطعماً كل مزروعات الضيعة . ووصل صيت بستانه الى طرابلس شمالاً والبترون غرباً . واضحى حديث الشيوخ في لياليهم وقبلة الشبّان في نزهاتهم . ولُقّب ابو محفوظ «بالبستاني» على سبيل الاطلاق فلم يَعُد يُعرف الّا بهذا اللقب . وكان جنب البستان صخرة كبيرة يجلس عليها صاحبه اذا ما انتهى من عملهِ واراد الراحة فلقّبوها ايضاً بصخرة البستاني

أموالنيَّ ملكتمُ كرمًا بجميلكم قلبي وحبي
فخذوا اذًا رسم الحبّ فذا ابقى لكم من حسنيَ الفاني (سليمان البستاني)

فاضحت الصخرة شاهدةً حتى اليوم على منبت هذه العائلة الكبيرة

وكان أن قويت شوكة المتاولة في تلك الجهات واخذوا باستعباد المسيحيين . فأبت أَنَفَة ابي محفوظ الاقامة على الضيم وفضّل المهاجرة فترك قريته وداره وبستانه العزيز سنة ١٥٦٠ وقدم مع ولده محفوظ واخوته الثلاثة قاصدين الى دير القمر وهي اذ ذاك كبرى مُدن الجبل واهمّ وَسَط للصناعة

وفي الطريق تخلّف عنهم احد اخوة ابي محفوظ فاقام في قرية غادير من اعمال كسروان وامتدّ نسلهُ فيما بعد الى صربا وجونيه وساحل بيروت . وكان على الاب ان يفارق ابنه محفوظاً ايضاً فانه لعداوة دموية على ما يقال(١ ترك والده وعمّيْه ورحل الى ضهر صفرا في بلاد عكار ولا يزال نسله هناك يُعرف الى الآن ببيت محفوظ

امّا ابو محفوظ واخواه فوصلوا دير القمر واشتروا قطعة ارض من الدروز وابتدأوا بحرثها مجدّدين مِهْنتهم . وتكاثر نسلهم حتى ضاق بهم مجال العمل ، فهبط بعضهم بعيالهم في اوائل القرن الثامن عشر الى مزرعة الدَّلهمية من اقليم الخروب . وفي حديث طويل لا يسمح المقام بسرده انتقلوا الى مزرعة الدبّية التي اخذوها من بيت ابي نكد فتكاثروا فيها وعمّروها ، ولم يدخلها في اوّل الامر احد غيرهم ، حتى صارت اليوم قرية كبيرة اكثر سكانها من آل البستاني

ونا ايضاً نسلُ من ظلوا في دير القمر وانتشروا مع ابناء عمهم حتى ضاق عليهم المقام فاخذوا بالمهاجرة . واحفادُهم منتشرون اليوم في اكثر مدن وقرى لبنان وسوريا . وقد قطعوا البحار فترى منهم في مصر والسودان واوروبا على اختلاف ممالكها والولايات المتحدة والارجنتين ، والبرازيل والمكسيك وسائر اقطار اميركا

وكان لاسمهم الادبي والعلمي ان ينتشر انتشار افرادهم واكثر . فنبغ منهم كثيرون من رجال الدين والدنيا فخدم منهم الكنيسة المقدسة ثلاثة مطارين : عبدالله وبطرس واوغسطين . ونحو الخمسين كاهناً من اشهرهم الخوارنة : يوسف ضاهر ويوسف جرجس وبطرس وبولس ورافائيل والاب منصور اليسوعي . امّا خدمة العلم والادب فعديدون نكتفي بذكر العلّامة الشهير المعلم بطرس ابي النهضة واولاده : سليم ونجيب ونسيب والشاعر الروائي سعدالله والكاتب الاخلاقي سعيد والشيخ

(١ راجع دائرة المعارف في مادة «بستاني»

عبدالله حامل لواء اللغة اليوم والاساتذة : امين وخليل ووديع والصحافيين : يوسف ونعوم واسكندر وكرم وبطرس والشاعر الرقيق ادوار والكاتبة الادبية السيدة أليس

وكأنَّ الله قد قيَّض لهذه العائلة ان ترتقي ذروة السياسة كما ارتقت ذروة العلم فنبغ منها فقيدنا العزيز فقرن الى دقة العالم حزم الاداري ، وكان عماد الدولتين : السيف والقلم . . . فمن هو هذا الرجل؟ وما هي مزايا رجل السياسة ؟ وما هي صفات رجل العلم والادب ؟ ثلثة اقسام نتوخاها في درسنا هذا

القسم الاول

الرجل

١ في بكشتين : الطفل — والولد (١٨٥٦—١٨٦٣)

على رابية من روابي اقليم الخروب من قضاء الشوف في لبنان الجنوبي ارتفعت بناية كبيرة تظهر لقاصد . . . بيروت على طريق الدامور بقرميدها الساطع تحت اشعَّة الشمس . . . وحول هذه البناية تنتشر بضعة بيوت ألفت مزرعةً تُعرَف ببكشتين

في هذه البناية ، او بالاحرى في الدار القديمة التي قامت عليها هذه البناية ، رأى سليمان البستاني النور في الثاني والعشرين من شهر ايار سنة ١٨٥٦ . يوماً مباركاً كان اليوم الذي رُزق فيه خطّار سلّوم البستاني بكر انجاله فقرَّت عينهُ ووافته التهانئ من كل جهة . وكان فرح العائلة شاملاً اذ كان الوالدان بستانيَّين : الاب خطار بن سلّوم شقيق المطران بطرس بن نادر ، شقيق المطران عبدالله بن ابي يوسف ناصر . . . ابن ابي محفوظ البستاني . والامّ مريم بنت الخوري جرجس البستاني . وان الواقف على عادات بلادنا والعارف بما تحتفل به العائلات يوم ولادة الولد البكر يعلم مقدار احتفال عائلة خطار بولادة سليمان

ورُزق ابوه بعدهُ ثلاثة انجال هم : سعيد بك ، امير آلاي الجند اللبناني سابقاً والدكتور عبدالله بك الطبيب الشهير في مصر والاستاذ الدكتور سليم بك من اشهر المحامين في مصر ايضاً

وكان السعيد الذكر المطران عبدالله البستاني بعد ان اقام مكانه على ابرشية

صور وصيدا المارونية ابنَ شقيقه المطران بطرس يسكن مع عائلة خطار حفيد اخيه نادر. فسُرّ سروراً شديدة بولادة سليمان. وما ان ترعرع حتى تعلّق به، وكثيراً ما نرى الشيوخ يتعلقون بالاطفال اذ يرون بهم تذكاراً للماضي وتعزيةً على الحاضر ورجاء للمستقبل، وهكذا كانت حالة المطران عبدالله مع سليمان فما بلغ السنة الثالثة حتى اخذ يتلقنه مبادئ العربية والسريانية. وكان يأخذه بعد انتهاء الدرس الى النزهة حول بكشتين فيروّض جسمهُ وعقلهُ في تلك الاحراج والبراري ويذخر في مخيلته صوراً جميلة ومناظر بديعة كان عليها ان تَسِم بسمة اللطف وحسن الذوق والرشاقة كلَّ ما سيخطه ذاك القلم... وانَّ من يقرأ وصفهُ لسويسرا في قصيدته «الشفاء» يفاجئ بين سطورها تأثير تلك التربية الجليلة وفضلها على الشاعر فهي التي تعوّده ملاحظة ادقّ التصاوير فيستخرج منها ارقّ العواطف

هكذا نشأ سليمان بين الدرس والنزهة فاتحاً صدرهُ للهواء الطلق الصافي وعقلهُ لبذور العلوم. وكان منذ طفولته ميّالاً للمطالعة محبّاً معرفة كل ما يقع تحت بصره. وقد ساعدته ذاكرته القويّة فنال وهو في السابعة من عمره ما لا يناله غيره وهو ابن خمسة عشر. وكان نَهِماً في المعارف يسأل عن كل ما يسمع فاحصاً بدقّة عن اصله وفصله. قرأ ذات يوم باشارة المطران فصلاً من كتاب «الف ليلة» يذكر حكاية صياد يجد عفريتاً فيروي له العفريت قصة ملك مع حكيم شهير فانتهى الى مكان فيه: «وكان قد دخل مدينة الملك حكيم كبير طاعنٌ في السنّ يقال له الحكيم ردبان.. وكان عارفاً بالكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية...» وما وصل الى هنا حتى اطبق الكتاب وقال: «أوَ كان هذا الحكيم احسن مني؟ ولِمَ لا اعرف انا بالكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية؟» فتبسّم المطران جذلاً وقال: «ستعرف كل ذلك ان اجتهدت»... وظلت هذه الفكرة في دماغ سليمان حتى ادرك ذاك الحكيمَ وجاوزهُ...

هذا وللمطران فضل آخر اعظم شأناً ألا وهو انماء روح التقوى والتديّن في نفس الصغير. فقد كان بارشاداته ونصائحه وامثاله الانجيليّة يغرس الايمان في تلك الارض الخصبة غرساً لم تقوَ على زعزعته جميع زخارف العالم وسفاسط اعداء الدين. وكان ما يرى سليمان في والديه من الفضائل يعزّز تلك النصائح ويُنميها. وكان ابوهُ خطار

مشهوراً بالمروءة والكرم وعزّة النفس حتى سار صيته في تلك الجهات . وكان المارّ في طريق بكشتين لا يجسر الّا ان يأتي بيت خطار فيقيم عنده ضيفاً ما شاء . ذلك لان خطاراً المذكور كان يغضب اشدّ الغضب على من يمرّ في ليل او نهار ولا ينام او يأكل في داره . ويروى انه كان على سليمان ان يرث القسط الوافر من هذه الصفات

٢ في بيروت : التلميذ — المعلم — الصحافي — الاديب (١٨٦٣ — ١٨٧٦)

ولما بلغ السابعة من عمره تكاملت عليه ظواهر النباهة فرأى ابوه ان يرسله الى المدرسة الوطنية في بيروت . وكان مؤسسها ورئيسها نسيبه الشهير المعلم بطرس البستاني ابا النهضة الحديثة . فدخلها سليمان سنة ١٨٦٣ وكم بطل به المقام حتى نبغ في كل علومها وبرّز على اقرانه . وكان من معلّميه فيها الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير . فاتقن في المدرسة العربية والانكليزية ودرس الفرنساوية والسريانية . . . وكان يقرن الى الاجتهاد حسن الصفات وطيب الاخلاق حتى احرز بين رفقائه افضل مقام واطيب سمعة . فكانوا يرون به الصديق الصدوق والناصح المخلص ويسيرون الى رأيه ما يخ لهم افئدتهم الفيّة فيقبل سراتهم يوجه دقّ ويود هيّن قلما عرفوه عميقاً راسخاً ويعمل على التوفيق بين المختلفين ومسلاشاة كل فتنة تبدو بدئي هي احسن . فظهرت فيه من ذلك الحين برثومة الرجل السياسي الحنك والاداري الرزين . وكان ينصح رفاقه نصائح صالحة يتبعونها بكلّ دقة ارضاء له اذ كانوا حريصين على مسرّته متفانين في اعتباره

ومما اشتهر به في المدرسة قوة ذاكرة قرنها الى ذكاء حادّ فنتج عنهما مقدرة غريبة على استيعاب العلوم والتوسّع فيها بطريقة عقلية أمنّ معها ضرر تراكم المحفوظات المتشقية الانواع . . . وقد ساعدته هذه الذاكرة على حفظ الكثير من المعارف الثانوية . ومما يدل على قوتها انه سرد مرة عن ظهر قلبه نشيداً ونصف نشيد من ملحمة «الفردوس المفقود» لملتن الشاعر الانكليزي ، مع قسم وافر من قصيدة «سيدة البحار» لوالتر سكوت الروائي الانكليزي واستظهر الفيّة ابن مالك وانشد منتي بيت منها في احدى حفلات المدرسة الوطنية

واشتهر ايضاً في المدرسة باتقانه فنّ التمثيل . فكان يُعهَد اليه بتمثيل الادوار

الدقيقة في الروايات. ولا يزال بعض مترجميه يتناقلون انه مثّل مرة دور «منتور» في رواية «تليماك» بمهارة يندر ان يأتي بمثلها من كان في سنه. وهذه الرواية لاحد معلمي المدرسة المذكورة الشاعر سعدالله البستاني (١

وبعد ثماني سنوات من دخوله المدرسة نال شهادتها النهائية. فلم يكتفِ بها بل تابع الاجتهاد يبذل الجهد في افادة تلامذته وحثهم على درس لغة البلاد واحوالها وعادات اهلها. كل ذلك بطريقة سهلة ساذجة جعلت له اعظم اعتبار في عيونهم

وكان يحرّر في «الجنان» و«الجنة» (٢ وتولّى تحرير «الجنينة» (٣. واشتغل مع انسبائه اصحاب هذه الصحف في تأليف «دائرة المعارف» وله فيها المقالات الشيقة والابحاث الدقيقة

وذكر عيسى اسكندر المعلوف انه انتُدب ترجماناً لقنصلية الولايات المتحدة (٤ وكان لا يألوا جهداً في سبيل نشر المعارف وتجييد النهضة الادبية في سوريا فعُدّ من مؤسسيها. ودخل في جمعية «زهرة الآداب» وترأسها مرتين. وكان لها في ايامه نفوذ يُذكر

وفي غضون ذلك اشتد الالم في عينيه فاعتزل المطالعة والكتابة مكرهاً معوّضاً ما امكنه بأحاديثه الشيقة وافاداته. ولحسن الحظ لم يقعده الالم طويلاً بل تابع جهاده بكل نشاط. . مغتنماً زمن الشباب لا لصرفه في اللذّات والملاهي ككثيرين بل لبذله في سبيل تحصيل العلوم وتهذيب النفس بآداب الشعوب المختلفة. وكان مع اشغاله وتعمّقه في الدروس يجد ميلاً فطرياً الى اتقان اللغات العديدة فحصّل منها قسطاً وافراً كما سترى.

---

١) جرجي نقولا باز: سليمان البستاني – بيروت – ١٩٢٥ ص: ٤

٢) صحيفتان الاولى مجلة نصف شهرية سياسية علمية ادبية تاريخية. والثانية جريدة نصف اسبوعية سياسية تجارية ادبية، انشأها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٧٠ وسلّم ادارة الثانية الى ابنه سليم. وبعد وفاة الاثنين نال امتيازها نجيب البستاني فاصدرها الى سنة ١٨٨٦ ثم أُجبر على اقفالها لما حصل من الضغط على المطبوعات

٣) جريدة سياسية تجارية كان يصدرها سليم البستاني اربع مرات في الاسبوع. عاشت من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٥

٤) جريدة «الاستقلال» في ٦ آب سنة ١٩٢٥

٣ بدء اسفاره العراق. جزيرة العرب. قبائل البادية (١٨٧٦–١٨٨٥)

«هجرةٌ بعد هجرةٍ بعد اخرى وهمومٌ في اثر من همومُ»

(خليل مطران)

ولم تنحصر شهرة البستاني في محيط لبنان وسوريا الضيق بل تجاوزته الى الاقاليم المجاورة وهو لم يتجاوز العشرين من العمر. فارسل بعض وجهاء البصرة بزعامة قاسم باشا زهير يستقدمونه لانشاء مدرسة ونشر جريدة. وكان حبُّ الاسفار يأخذ من نفسه شيئاً فشيئاً، فلبى دعوتهم هذه، وسافر سنة ١٨٧٦ مصحوباً على قول المقتطف باحد ابناء البستاني (١. فانشأ هناك مدرسةً ادارها سنةً وتركها لغيره متصرفاً الى تجارة التمر مع آل زهير. وكان مع اعماله التجارية لا ينفك عن درس احوال تلك البلاد واخلاق اهلها وعاداتهم ويدوّن كل ذلك في مفكراته مترقباً الفرص للسفر وتفقُّد الاعراب في البوادي المجاورة. وكان قد اتخذ بغداد مقرًّا له فدرس احوالها المالية والتجارية والزراعية واخلاق اهلها وما جاورها من العربان. ولم يلبث ان تعيَّن عضواً في محكمتها التجارية

وكان في بغداد شركة للمراكب الخديوية العثمانية تُعرف شركة «عمان» ساءت احوال ادارتها بعد قيام مصلحها مدحت باشا من تلك الارض فانحطت كثيراً وانتهبت اموالها وتكاثرت عليها الديون فرزحت حتى عُين ثابت باشا والياً على البصرة. فاستاء لذلك وارسل الى الاستانة تقريراً ضافياً بهذا الشأن. فاناه التفويض التام بالاصلاح. فتداول مع مجلس ادارة الولاية وبعد البحث الطويل لم يجدوا الّا سليمان يولّونه هذا الامر. فتعيَّن مديراً لها ولمعمل حديد كان انشأهُ مدحت باشا. وأُطلقت يده في التصرّف الداخلي والعزل والتعيين وجميع ما يتعلّق بادارة تلك الشركة. ولم تمضِ ثلاثة اشهر حتى ترتبت الاشغال وحسنت حال الشركة فوفت ديونها وجمعت الوف الليرات ارباحاً. فكان نصيب البستاني من ذلك السمعة الطيبة، واقرَّ له الجميع بحسن الادارة والحكمة في التنظيم والترتيب

وبعد ذلك عنَّت له الاسفار والرحلات العلمية فزار مرّات بلاد العرب وقصد

---

١) راجع المقتطف (شهر آب سنة ١٩٢٥) – سليمان البستاني ص: ٣٦١-٣٦٧

اليمن ونجد وحضرموت وغيرها . فدرس احوالها وطبائع اهلهـا وميولهم وطرُق معيشتهم وعاداتهم في افراحهم واحزانهم . وسافر اياماً في البادية على ظهور الابـل حتى وصل الى « الرقتين » فرآهما « مطمئنتين من الارض في بادية قفرة تقتله اشعة الشمس اذا وقف اليها ساعـة واحدة » (١ . ثم زار جميع الاماكن المشهورة في شعر العرب الاقدمين وتفقّد احوال القبائل الحالية فجالس شيوخها وحادث شعراءها وجمع الكثير من اشعارهم في ديوان وعد بطبعه فلم تمكنه الظروف . ولعلـه يطبع مع كتابه الكبير في تاريخ العرب الى اليوم الذي باشر به حينذاك ولا يزال مخطوطاً

وكان يبحث في تلك البوادي بحث عالم خبير مدقق فتوفق الى اكتشاف قبيلة عربية لم يعرفها احد قبله ولا دوّن اسمها قلم كاتب . فبحث في اصلها وكتب عنهـا مقالاً ضافياً في ثلاثة اجزاء من مقتطف سنة ١٨٨٧ وسنعود الى ذكرها . وقد احصى جميع بدو القبائل بسبعة ملايين احصاء دقيقاً لم يجاره به احد . فابتدأ من بدو سوريا فالعراق فاطراف الاناضول فنجد والحجاز واليمن وعمان وحضرموت وغيرها

٤ من الاستانة واليها : دائرة المعارف التركية — زواجهُ — معرض شيكاغو (١٨٨٥—١٨٩٨)

« حبتَ المغارب بعد الشرق مرغلاً ما ابتَ من سفرٍ الّا الى سفرِ » (مراد ابي نادر)

وبعد تسع سنوات عاد الى بيروت سنة ١٨٨٥ وتابع شغله في « دائرة المعارف » . وكان قد توفي نسيبه سليم سنة ١٨٨٤ وقبل موته اراد ان يترجم الدائرة الى اللغـة التركية فعهد بذلك الى خلفي افندي رئيس المكتب السلطاني ومعه نخبة من كتّاب الترك فترجموا منها نحو المجلدين وتوفي سليم المذكور قبل المباشرة بالطبع . فرأى سليمان وابناء عمه نجيب ونسيب ان يتشوا العمل . ولمّا كان لا بدَّ من رخصة وزارة المعارف سافر المترجم الى الاستانة فاتّصل بكامل باشا وكان يومئذ وزير الاوقاف وبسعيد باشا الصدر الاعظم وغيرهما من الوزراء كجودت وصبحي . وظلّ يتردّد على الوزارة ثلاثة اشهر وهي تماطلهُ الى ان علم الصدرُ الاعظم بذلك باشارة كامل فقال لـه : « لو خطر لي انك لقيتَ هذه المماطلة لأغنيتُك من تلقاء نفسي عن هذا العناء . فاذهب الآن مطمئنًّا وعُد اليّ بعد ثلاثة ايام » . وفي اليوم التالي فاز بالاذن وصارت الرخصة

١) مقدمة الالياذة (ص : ١٦١)

بيده فزار سعيد باشا في اليوم الثالث «ليشكره لا ليشكو اليه» (١

ورجع الى بيروت فاصدر الجزء التاسع من «دائرة المعارف» العربية واراد طبع الدائرة التركية فحال دون ذلك اشتداد المراقبة والضغط على المطبوعات حتى انه اضطرّ الى السفر الى مصر حاملاً معه موادّ المؤلف المذكور. وكان ذلك في اواخر سنة ١٨٨٧ فنشر في المقتطف (٢ مقالتهُ عن القبيلة المكتشفة واسمها «الصلبة» او «الصُّلَيب» (٣ واذ كان يصلح مسوداتها في ادارة المجلة المذكورة اقترح عليه رئيس التحرير ان يترجم الالياذة فوعد وبدأ بالترجمة

وكان قد نشر طريقة للاختزال العربي في الجزء التاسع الذي اصدره من دائرة المعارف بعنوان «ستيوغرافيا» فاراد الخديوي توفيق باشا ان يعمّها في مصر. فاعاد المترجم نظره فيها ونشرها على حدة. ثم عرض له ما دعاه الى الرحيل واهمل المشروع. وكان عليه ان يتابع اسفاره العديدة وقد قال:

«ولم أكد استقرّ في مصر حتى حدا بي حادي الاسفار التي ألفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ وفي النفس شغف بها وحنين اليها. فانتهى بي التطواف الى العراق بعد ان طرقتُ الهند والطراف العجم فأقمت فيها زهاء سنتين... ثم شخصت الى الاستانة واتحدتُها مقاماً طيباً لبثتُ فيه سبع سنوات كنت كثير التنقّل في اثنائها بين الشرق والغرب فيوم بسوريا وسنة باوربا واميركا والمرجع الى الاستانة» (٤

وتضلّع في بلاد العجم من اللغة الفارسية، فتعرّف الى مؤلفات مشاهيرها كالفردوسي وغيره وطالع اشهر ملاحمها من امثال الشاهنامه. وكان من طبعه ميّالاً للشعر القصصي ميلاً كان من الاسباب التي دفعته الى اجلّ واعظم عمل اتاه شاعر عربي ألا وهو تعريب الالياذة

وفي بغداد تزوّج من ابنة انطون البغدادي الكلداني فلم يتوفّق معها ولا رُزق منها اولاداً. واقام في الزوراء سنتين تفرّغ فيهما الى متابعة التعريب وكتابة مؤلفه في تاريخ العرب المذكور آنفاً. وبعد ذلك عاد الى الاستانة واقام بها كما قال سبع سنوات انتُدب في خلالها لتولّي ادارة القسم العثماني من معرض شيكاغو. فغادر عاصمة

---

١) جرجي نقولا باز – سليمان البستاني (ص: ٧) وتاريخ الصحافة العربية (٣: ١٦١)

٢) راجع المقتطف (شهر آب ١٩٢٥) سليمان البستاني (٣٤١-٣٤٧)

٣) اطلب مقالةً عن الصُّلَيب في المشرق (١ [١٨٩٨]: ٦٧٣) ٤) مقدمة الالياذة (ص ٧)

آل عثمان الى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٣ وهو يرجو ان يبين للاميركان شيئاً من محاسن الشرق ومقدرة ابنائه على مماثلة ابناء الغرب بافكارهم واعمالهم. فانشأ هناك جريدة تركية دعاها «شيكاغو سركيسي» اي «معرض شيكاغو». ولكنها لم تنل حظاً وافراً من الحياة بل اضطهدتها سفارة تركيا لانها لم تمدح الباب العالي... ولم يكن حظه المالي احسن من حظ جريدته الادبي فخسر في ذاك المعرض خسارة كبيرة قُدّرت بنحو ٢٥ الف ليرة

ثم رجع الى الاستانة وكان قد درس اثناء اقامته في العراق مشروع ري تلك الاراضي الخصبة فكتب تقريراً رسمياً في ذلك رفعه الى الوزارة العثمانية، وكانت قد سدّت اسماعها الوشايات والمفاسد بحقه فلم ينل جواباً

وشهد في الاستانة سنة ١٨٩٦ مذبحة الارمن من اولها الى آخرها. وكان ساكناً اذ ذاك في «فنار باغچه» مجاوراً «اللدالي فؤاد» منفي الشام. وكان الرجل من عقلاء الاتراك يكره سفك الدم البريء فرآه المترجم «يطوف مدجّجاً بسلاحه ينهي عن سفك الدماء. يحيي الليل بين هاتيك الاحياء واعظاً منذراً متلطفاً متهدداً على ما تقتضيه الحال. يسأل من أنس منه خوفاً ان يحل ضيفاً كريماً عليه. يؤمّن الخائف ويُرعب الخائن...» (١)

٥ نشر مؤلفات: دائرة المعارف — الالياذه — عبرة وذكرى

(١٨٩٨-١٩٠٨)

تركتَ لاجيال الغداة صحائفاً من المجد ما أجدتك مالاً ولا حمدا

فمن «عبرة» تتلى و«ذكرى» لنائل و«الياذة» من حسنها انتظمت عقدا (بولس غانم)

انقضى بضع واربعون سنة من عمر البستاني قضاها في الرحلات والاسفار فجاب بلاد لبنان وسوريا والعراق والعجم والاناضول ونجد والحجاز واليمن وعمان وحضرموت وتفقّد شؤون الهند وما فيها من القبائل المختلفة. وهبط مصر واقام في الاستانة وبلاد اليونان وزار مرّات دول اوروبا واميركا فاكتسب العلوم الكثيرة والمعارف الواسعة. وتمكن من التعمّق في العديد من اللغات. فلم يبق عليه الّا ان

(١) عبرة وذكرى (ص: ٩٦)

يفيد قومه بما استفاد ويُتمم ما كان شرع به من المؤلفات القيمة كدائرة المعارف وتاريخ العرب وتعريب الالياذة ... فترك الاستانة واتى لبنان بعد غربة طويلة فقضى مدة في بكشتين ثم باشر فيها بناء دار كبيرة كان عليه ان يدخلها لاول مرة جثة هامدة ...

وكان اثناء راحته يجلس مع ابناء عمه الصغار تحت ارزتين في ساحة الدار فيعلمهم الآداب العربية ونظم الشعر والقراءة الفصيحة . وتحت هاتين الارزتين كان يكتب شرح الالياذة ومعجمها

ثم قصد الى مصر ، ولصر في قلبه مركز خاص ، فاقام بها يشتغل تارة بالتجارة فيخسر مادياً وطوراً بالآداب فيعوض ادبياً ونعم التعويض . وفي مصر نشر بالاشتراك مع نسيبه نجيب ونسيب البستاني الجزءين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف فاستقبلها العالم الادبي بكل حفاوة

وكان قد انهى تعريب وشرح الالياذة فنشرها سنة ١٩٠٤ في مطبعة « الهلال » فنالت من إعجاب العلماء والادباء مركزاً عالياً واجمعوا على اكرام صاحبها فاقاموا له حفلة كانت الاولى في بابها وذلك في نزل « شبرد » في القاهرة في ١٤ حزيران من السنة المذكورة . وقد جمع الاديب نجيب متري صاحب مكتبة « المعارف » في كتاب خاص جميع ما قيل في تلك الحفلة من منثور ومنظوم

وما حدث الانقلاب العثماني وبدت طلائع الدستور حتى احسّ المترجم بمقدرته على منفعة بلاده دون خوف المراقبات الضيقة . فجمع معلوماته وافكاره وآراءه الصائبة في كتاب أسماه « عبرة وذكرى او الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » واصدره من مطبعة « الاخبار » في مصر سنة ١٩٠٨ بسرعة غريبة . وهو لم يستعن في تأليفه بسوى حافظته ودماغه الكبير فلم يفتح كتاباً غيره ولم ينشر معجماً . والكتاب آية في الآداب العربية مبنًى ومعنًى وسيأتي الكلام عليه في بابه

ثم قدم بيروت ولبنان فزار اقاربه واصدقاءه ومعارفه . وكان يخاطب كلًا بلهجته فيسر الجميع . وكان يحمل معه مسودات تآليفه فيشتغل بها دائماً ويدوّن مذكراته مقابلًا بين تمدن الشرق والغرب باذلًا جهده في رفع هذا الحاجز الكثيف الذي يفصلنا عن مستوى الغربيين

٦ في مناصب الدولة التركية

عضو مجلس المبعوثان ورئيسه الثاني — عضو مجلس الاعيان — وزير التجارة والزراعة والمعادن والغابات (١٩٠٨-١٩١٤)

«ونادوا به في المجلسين منابراً علاها فلم تعهد له فوقها نِدّا .
وقولوا لارباب الوزارة بعده تخلّوا خلا من يُحسن الحلّ والعقدا» (بولس غانم)

كان مترجمنا عضوا في جمعية «الاتحاد والترقي» فلم يعلن الدستور سنة ١٩٠٨ ويصبح للولايات العثمانية الحق بانتخاب مندوبين عنها يمثلونها في مجلس المبعوثان في الاستانة حتى ارسلت هذه الجمعية فاستقدمت البستاني الى بيروت ورشّحته للنيابة لما كانت تعهد به من الكفاءة وسعة الاطلاع والتفاني في حب بلاده

وصل بيروت فقامت ضجّة هائلة حول الترشيح والمرشّحين وجرت حوادث نذكرها في بابها . . . ثم اسفرت تلك الضجّة عن انتخابه مع رضا بك الصلح نائبَين عن ولاية بيروت وأقضيتها فهنّأته الجرائد والمجلات وتناقلت رسمه ومما يردّده القوم الى الآن بيننا بيتان من الشعر انشدتها السيدة وردة اليازجي وهما:

اخلِقْ ببيروت دار العلم من قدَمٍ ان تصطفيك على الايام بعوانا
فالله لمّا ارتأى إعلان حكمتهِ ما اختار من شعبٍ الّا سليمانا

ودخل المجلس فكان خير ممثل للامة العربية ولما يقدر ان يصل اليه ابناؤها من النبوغ . وكان موضع اعجاب جميع الاعضاء يحسبون له الحساب الاول في المناقشات ويجلّونه اجلالاً عظيماً ادّى بهم الى انتخابه رئيساً ثانياً لمجلسهم . وكان ذلك سنة ١٩١٠ والرئيس الاول احمد رضا بك الشهير . وكان المترجم في المجلس رئيساً لخمس لجان اهمّها لجنة الخارجية ولجنة السلام العام الدولية . وكان السلطان يرسله الى اوروبا في المهمات الرسمية فيترأس الوفود ويخطب في المواسم بلغات اهلها مثيراً الاعجاب حيث يمرّ . . .

ثم نُقل الى مجلس الاعيان وعيّنته الدولة سفيراً فوق العادة لدى دول اوروبا فسار الى لندن ورومية وبروكسل ليمثل الحكومة العثمانية في المؤتمرات التي عُقدت سنة ١٩١١ في تلك المدن . وكان قد سار قبل ذلك الى باريس ولندن وبرلين رئيساً لوفد النوّاب العثماني وسار وحده بمهمّة سياسية الى بطرسبرج

ورجع الى الاستانة وله في المجلسين من الاعمال ما يشرّف اسمه ويظهر اخلاصهُ لأمته ووطنه . وسنذكر شيئاً منها في باب رجل السياسة

وبقي في الاعيان حتى اصبح البرنس سعيد حليم باشا رجل الدولة فعرض عليه سنة ١٩١٣ وزارة «التجارة والزراعة والمابات والمعادن» . وكان البستاني لا يرغب في الوزارات غير انه قبلها لصداقة بينه وبين البرنس المذكور . فاشتغل فيها اكثر من سنة بجدّه ونشاطه المعروفين . فقلبها رأساً على عقب وجعل فيها الرجال الاكفاء وقام باصلاحات عديدة نراها في موضعها

وما زال في الوزارة حتى تلبّد جوّ السياسة الاوروبية وخاضت الدول غمار الحرب . وكان من رأيه ألّا تدخلها دولة آل عثمان لانه رأى بها خرابها . فاشتغل كثيراً لمنعها فتمكن من امتناع الكثيرين من الوزراء . غير ان هياج انور وطلعت وملايين الماركات الالمانية حالت دون اتمام مراده فانتصر حزب الحرب انتصاراً باهراً

عند ذاك قدّم البستاني استعفاءه واعتزل السياسة . ولمّا اشتدّ حزب طلعت وانور وجمال واخذ رجاله بالاستبداد في العرب «وهم لا يقدرون على الوقوف في وجوههم» ابى عليه اباؤه ان يقيم في الآستانة بعد ذاك وتركها حزيناً على دولة يجرُّ بها ابناؤها الى الهاوية

٧ جشوم النسر : في سويسرا — المفاوضات بالصلح — المرض — في مصر (١٩١٤ — ١٩٢٤)

اشتغل البستاني طويلاً ، فحقّ له ان يستريح وكانت استراحته شبه قسرية فجثم بعيداً عن المعترك معتزلاً في سويسرا يرقب فرصة ينفع بها بني قومه

وصل تلك البلاد خافقاً اسيفاً فلحق به طلعت باشا وترضّاه واعداً اياه بمعاملة الولايات العربية بالرفق واللين . وكان رأى ان ستدور الدائرة على الدولة فطلب اليه ان يسعى بصلح شريف بينها وبين الحلفاء فوعده خيراً . واشتغل بالمفاوضة فنجح بعض النجاح . . . ولكنه لم يصل الى نتيجة حسنة بتكرار مساعي المانيا الشهيرة

وكان بين الفرصة والاخرى يتابع كتابة تآليفه مجتهداً ان يجمع فيها كل اختباراته الشخصية . . .

وفي اواخر الحرب كانت البلايا قد اشتدّت على البلاد العثمانية حزن حزناً كثيراً وأصيب بداء أقعده عن كل عمل فبقي مستلقياً الشهور الطوال في مستشفى «مون ريان» في سويسرا حيث أُجريت له عمليّة لاقى بعدها من الآلام المبرّحة ما اذاب عواطفه فنظم قصيدته «الداء والشفاء» التي وصف بها حالته فقال:

«وقالوا صفْ علاجَك قلتُ ضمِّدْ أحمّاسهُ لدفعِ الفرّ ضرّا
فحين أهبُّ مما قد دعوه رُقادًا وهو مني قد نبرّا
لكفّ الكبرياء أُقادُ حتى مجاريحا تساقُ اليَّ جرّا
كأنَّ لها شعورًا بالتباني فتسمعني انين الحزن جهرا
فمن ظهرٍ الى ظهرٍ وفخذٍ صفائحُ ترمضُ الاعضاء حرّا

ثمّ اتسع بما كان يقاسيه من الآلام اثناء علاجه الى ان قال:

وكادت تبلغ الروح التراقي وكدتُ ارى حياة المرء نكرا
فذا داني وذاك علاجُ داني ولستُ بعالمٍ أبأسٍ أمرّا (١)

وبعد عقد الهدنة دعا الى سويسرا اخاه سليماً وارجعه الى مصر مريضاً فعالجه فيها اخوه الدكتور عبدالله الى ان تمكن من شفائه تماماً بعد سنة ونصف

وبعد ان دخل طور النقاهة وجاوز الخطر دُعي مراراً الى الاستانة فذهب مرّة ولم يُطل المقام... واذ نهض الاتراك واستتبّ لهم الحكم دعاه مصطفى كمال الى انقرة ليشغل مركزاً خطيراً في تلك الحكومة الفتيّة فحالت موانع دون قبوله

ثم رجع الى مصر وقد انتكست صحته وزاد الم عينيه فأُجريت له عمليتان احداهما فلم تنجح وضعُفَ نور الثانية ايضاً. وكان يشتغل اثناء مرضه في اختراعين نتكلّم عنهما...

وفي صيف السنة الماضية دعاه كبار السوريين واللبنانيين في الولايات المتحدة. فرأى في هذه الدعوة تحقيقاً لثلاث أمنيات: الإجابة الى مطالب بني وطنه ومقابلة اديسن وعرض الاختراعين عليه ثمّ الاستشفاء من مرض عينيه. فلبى الدعوة وركب البحر الى العالم الجديد فلقي فيه حتفه

(لها بقيّة)

(١) الداء والشفاء - الطبعة الثانية بمصر ١٩٢١ ص: ٣-٦